«فَلتُسْـقِطوا عنّي جواز السَّفر!»

جدل «اللجوء» و«الهجرة»: هل دَقَّتْ سـاعَةُ المُراجَعاتِ المُؤْلِمَة؟

[فندق الريفييرا، ١٠ تشرين الأول ٢٠٢٠]

مَضَـتْ علـى لبنـانَ خـلالَ الأعـوامِ الماضيـة أسـابيعُ وأشـهرٌ ذاع فيهـا بيـن فِئـاتٍ واسـعة مـن اللبنانييـن واللبنانيـات أنَّ الخَطَـرَ الخَطَـرَ علـى لبنـان، فـي وجـوده وكيانـه وتوازنـه السـكاني والاقتصـادي، إنمـا هـو اللجـوء ــ ولا سـيما اللجـوء السـوري.

ولا غـرو مـن بلـد أثخنتـه حـرب أهليـة كانَ لجماعة مـن اللاجئين إليـه، اللاجئين الفلسـطينيين، يَـدٌ طولـى فيهـا، وفاتَـهُ يَـوْمَ أن انتهـت هـذه الحـربُ أن يُحـاوِل التعافـي مـن آثارهـا ــ لا غـرو منـه أن يُؤَجِّـجَ لجـوءٌ جديـد إليـه ذاكـرةَ لجـوءٍ سـابق، فكيـف إذا كان تأجيـجُ هـذه الذاكـرة تحـت عنـوان التحشـيد السياسـي الـذي لا يتـورع عـن كل أشـكال التحريـف التاريخـي المُتَغَـرِّض...

رغـم المُحـاولات التـي تصـدّى لهـا بعـض الأفـراد والمؤسسـات لبيـان مغـارم اللجـوء ومغانمـه بيانًـا عِلْمِيًّـا موضوعيًّـا، لـم يتراجـع تأويـل اللجـوء علـى معنـى الخطـر إلّا يـوم أن انتفـض اللبنانيـون واللبنانيـات علـى التـردّي المطـرد لأحـوال بلدهـم لأسـباب لا شـأن لهـا، مباشـرة، باللجـوء علـى نحـو مـا كان يُصَـوَّرُ لهـم وإنمـا لأسـباب لبنانيـة عابـرة لـكل اللجـوءات الماضيـة والحاضـرة.[١]

وإذْ كانـت انتفاضـةُ اللبنانييـن واللبنانيـات تتـردد بيـن الخمـول والنشـاط مـع

(١) نقول تراجع لأنَّ التوسل باللجوء بوصفه بيت الداء اللبناني لم ينتف بالكلية.

محاولات حثيثة من قِبَلِ أهل السلطة لطي صفحتها إلى غير رجعة، كان ما كان يوم الرابع من آب الماضي في مرفأ بيروت من زلزال لا يملك أحدٌ بَعْدُ التنبأ بكل ترددات ــ وإن كانت عناوين هذه الترددات لا تخرج عن السيء والأسوأ وما هو شر من هذا وذاك.

على أنه، فواقع الحال أن كثيرًا من اللبنانيين واللبنانيات لم ينتظروا زلزال المرفأ، ولا ما سبقه من وقائع، ليُعيدوا النظر في جدوى التمسك بالبقاء في لبنان... كذلك، لا عجب أن توقفت إحدى الصحف، عشية فك الحصار الذي فرضته جائحة كورونا على الرحلات من مطار بيروت وإليه، عند الموضوع ونشرت مقالًا جاء فيه في عداد ما جاء أن «دراسة أجرتها [إحدى المؤسسات]، مطلع العام الحالي، توقعت أن يصل عدد اللبنانيين الذين غادروا البلاد من دون عودة في عام ٢٠١٩ إلى ٦١٩٢٤ مقارنة بـ٤١٧٦٦ في العام السابق، أي بزيادة بنسبة ٤٢ في المائة»![٢]

وإذ تمضي هذه الهجرة (الشرعية المنظمة) قدمًا، وإذ لن يُدْهِشَ، مع كل ما ينزل بلبنان من نكبات، أن تُبَيِّنَ الإحصاءاتُ في الأعوام المقبلة مزيدًا من التَّصاعد في أعداد اللبنانيين واللبنانيات الذين ينفضون أيديهم من هذا البلد، بلدهم، ويعقدون العزم على التَّرَحُّلِ عنه، ــ ضجَّت وسائل الإعلام على المطلع من هذا الشهر بخبر مُفاده أن ثلةً من الشُّبّان اللبنانيين فُقِدوا في البحر بعد انطلاقهم من شواطئ الشمال، على متن قوارب خفيفة، قاصدين قبرص واليونان فيما أعادت السلطات القبرصية إلى لبنان عشرات آخرين، لبنانيين وغير لبنانيين، التقطتهم سفن الإنقاذ في البحر أو أتيح لهم الوصول إلى البر القبرصي...[٣]

بالطبع، ليست «الهجرة»، بما فيها «هجرة اللجوء» بالأمر الجديد على لبنان واللبنانيين ــ لا بل إنَّ «ثقافة الرخاء» اللبنانية رفعت «الهجرة» إلى مرتبة الإنجاز الذي يُعْتَدُّ به ويُفاخَر ــ ولكن هل يستقيمُ، اليَوْمَ، التَّعَلُّلُ

(٢) انظر/انظري: «مرجعيات تتخوف من هجرة كبيرة للمسيحيين من لبنان»، **الشرق الأوسط**، ٢٠ حزيران ٢٠٢٠.

(٣) انظر/انظري: تقرير **الحرَّة** المنشور على موقعها في ٩ أيلول ٢٠٢٠: «هاربون من لبنان بـ"قوارب الموت" يكشفون لـ«الحرة» تفاصيل رحلتهم: تعذبنا كثيرًا ولا نريد العودة».

بهذه الصورة المُجَمَّلَةِ عن «الهجرة» لاستقراءِ التحديات التي يقف لبنان (واللاجئين إليه) بين يديها؟

غداة زلزال المرفأ انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي، في عداد ما انتشر، صورة لمُنَبِّه، وسط ركام أحد المنازل، توقفت عقاربه عند تمام السادسة وسبع دقائق ــ الدقيقة التي وقع فيها الزلزال. بلحاظ ما تسبب به الزلزال من قَتْلٍ وجَرْحٍ وفقدان، لا شك أن الزمن، في حسبان كثيرين وكثيرات، توقف عند السادسة وسبع دقائق؛ ولكن، بلحاظ ما أكده هذا الزلزال الذي أتى على خلفية انهيارات سياسية واقتصادية واجتماعية سابقة عليه من صِحَّةِ القُنوطِ بحاضر لبنان ومستقبله، القريب منه على الأقل، فلقد دق الزلزالُ ساعة مراجعات شتى، لعلَّ جدل «اللجوء» و«الهجرة» أحد عناوينها الأكثر إيلامًا.